الخطابة ملكة وفن

للأستاذ عبد المجيد نافع

يولد الانسان خطيباً ، كما يولد شاعراً أو فناناً ، أو عسكرياً أو سياسياً ؛ وتلك الملكة ، وهي وليدة الفطرة ، لا تنمو وتؤتى ثمارها إلا بالمران والصقل ؛ فالخطابة إذن موهبة وفن معاً ، فلا يسيغ العقل أن يكون المرء عاطلا من الموهبة الخطابية ثم يصبح بين عشية وضحاها من الخطباء الخالدين في التاريخ ، كما لا يهضم الفكر أن يكون الانسان خطيباً موهوباً ثم يصبح بين بياض يوم وسواد ليلة من الخطباء المعدودين دون درس وتحصيل ومران . ولقد يحلو لبعض المؤرخين أن يرسم صورة لخطيب مفوه كان في حداثته خلواً من ملكة الخطابة ، بل يصورونه في طفولته مثال الفهاهة والعي ، ثم يصيرونه في رجولته الخطيب المصقع ، والمفوه المنطيق ! فقد زعموا أن « دعوستين » خطيب اليونان العظيم كان في حداثته به عي وفهاهة ، فطمح إلى الخطابة وصحت عزيمته على مغالبة ذلك النقص والتغلب عليه ، فكان في كل يوم يذهب إلى البحر فيملأ فمه بالحصى ، ثم يقف أمام الموج المضطرب المصطخب ، فيصيح الصيحات العالية ، وما لبث أن تغلب على الفهاهة والعي وبات في طليعة الخطباء القادرين ! تلك صورة أدنى إلى خيال الشعراء منها إلى تحقيق الثقات من المؤرخين ، بل لعلها أسطورة من الأساطير التي تحيط بحياة عظماء الرجال عادة ، أو التاج الذي يضعونه على رأس البطل ، أو إكليل الغار الذي يضعونه على هامته ، أو هالة المجد التي يحيطون بها تاريخه . فقد يكون صحيحاً أن الخطيب اليوناني كان يقف حيال الموج المصطخب فيرسل الصيحة عالية ؛ على أن العقل لا يسلم بأنه كان عييًّا ، وكل ما يستطاع التسليم به أنه كان يروض نفسه على الكلام بنجوة من الناس

وقد تبقى ملكة الخطابة دفينة إذا لم تتح الظروف لبعثها ؛ وقد يظل الخطيب الموهوب خاملاً مغموراً إذا لم يوجد أمامه الميدان الذي تتجلى فيه مواهبه ، ولولا الثورة الفرنسية ورغبة الفرنسيين في ثل عرش الاستبداد ، وكسر قيود الاستبداد ، وتقويض دعائم الماضي وتشييد صروح للمستقبل وهدم النظم العتيقة البالية ، وبناء النظم الدستورية الحديثة ، وغرس مبادئ الحرية والمساواة والإخاء — لولا ذلك الغليان الفكري لما ارتفع « ميرابو » من غمرة الخمول إلى ذروة الشهرة والمجد . وما كان الزعيم الشاب مصطفى كامل لتتجلى مواهبه الخطابية ، فيلقي بالاسكندرية في عام ١٩٠٧ خطابه الذي يعد برنامجاً وطنياً ، لولا رغبة المصريين في الجلاء وتشييد صروح الاستقلال ؛ بل لولا ثورة عام ١٩١٩ ورغبة الشعب المصري في تقرير مصيره بنفسه ، ما بات سعد زغلول الخطيب الخالد في التاريخ

ولا مندوحة لمن ينشد الكلام أن يدرع بالعلم ، فالخطيب ينبغي له أن يعلم ما يقول ، وأن يعلم جمهور سامعيه منه جديداً ، وإلا عُدَّ من تجار الكلام لا من الخطباء ، وكان قوله ثرثرة لا طائل تحتها ولا غناء فيها ، لا خطابة تحق حقاً وتبطل باطلاً ، وتنصر دعوة وتخذل أخرى ، وتبث مبـــدأ قويماً وتكافح غيره فاسداً

إن الخطيب الذي يقرأ شعر الشعراء ونثر الناثرين وخطب الخطباء ، ويكون على اتصال روحي بالحركة العلمية والأدبية ، لهو الخطيب الذي يعرف كيف يضفي على فكرته الثوب الذي يلائمها ويأتي بالصور الأخاذة والعبارات الخلابة والآراء الناضجة وعلائق شعور سامعيه

والخطيب الذي لا يُعنى دائماً بتجديد ثروته العلمية واللفظية خليق ألا يسمع الناس منــه إلا الرأي المبتذل ، والفكرة الغثة التافهة ، والعبارات الممجوجة المملولة

على أن الاسراف في المطالعة يوشك أن يصيب المرء بنوع من الشلل العقلي ، وإن شئت فانه يصيب الذهنية الخصبة بضرب من الاجداب والامحال ، فمن يفكر برأس غيره دائماً ، وينظر بغير عينه ، ينتهي أن تشل حركة تفكيره فلا يفكر ولا يرى . ومن ير العالم من ثنايا الكتب يعش رجلاً خيالياً لا يدرك من شؤون العالم شيئاً . ومن لا يقتصد في المطالعة خليق أن يداخله اليأس فيهتف : ليس في الامكان أبدع مما كان ! وينادي : لا جديد تحت الشمس ، ويصيح صيحة اليأس : ما ترك الأوائل للأواخر شيئاً !

والحق أن الأوائل خاضوا في كل شيء ، على أنهم تركوا

للأواخر كثيراً ، ومن يذهب غير هذا المذهب فانما ينكر حركة التطور العقلى والفكرى فى العالم

ومن الناس من يلتهم الكتب التهاماً دون تفهمها والتغلغل فى روحها ، وخير من هذا للخطيب الطامح أن يطيل النظر فى خطب الخطباء فيتذوق الأثواب التى يسبغونها على آرائهم ، بغير أن يتعسف فى محاكاة طرائقهم فلكل خطيب شخصيته وأسلوبه فى عرض أفكاره

ويجمل بمن يأنس فى نفسه الاستعداد الخطابى أن يستمع إلى كبار الخطباء ليشهد وسائلهم فى بسط آرائهم وانتناع جمهور السامعين

ومن نافلة القول أن يلفت الخطيب إلى وجوب تفهم نفسية الجماعة التى يوجه اليها الخطاب ليتولى اقناعها ، فالخطب البرلمانية تفترق عن المرافعة فى مجلس القضاء ، والكلام فى اجتماع انتخابى يختلف عن التحدث إلى مجمع علمى ، على أن الخطيب الموهوب مطبوع على فهم روح الجماعة التى يخاطبها

وفى كل حال ينبغى أن يتوفر فى كل خطاب عناصر وضوح الفكرة وترتيب المنطق وروعة الأسلوب ، ولكن التأنق فى العبارة لا ضرورة له على الاطلاق ، بل قد يأتى التزويق والتنميق هادماً لدعوى الارتجال الخطابى ، والجمهور لا يتعنت فيطالب الخطيب بما يطالب به الكاتب ، والأسلوب الذى يخلو من الكلفة والصنعة يكون أفعل فى النفوس من الأسلوب الذى تغلب عليه البهرجة والتأنق . والخطيب الذى يتراءى أمام السامعين وقد ضاق صدراً بالعبارة التى يبرز فيها فكرته ثم يوفق اليها يكون شأنه فى التأثير شأن من يلقى قنبلة ، أو من يشهد بركاناً ينفجر . وإنى لأذكر فيما أذكر قول أحد كتاب الفرنسيين إنه يؤثر بربرية « جبتا » فى الخطابة على أناقة « جوريس » فيها ؛ فالغابة الطبيعية أحب إلى القلب ، وأشهى إلى النفس ، وأمتع للنظر من الغابة التى نسقتها يد الانسان

ولقد ألف الكتاب تقسيم الخطباء إلى : قارئ ، وحافظ ، ومرتجل ؛ فأما القارئ فهو الذى يتلو من ورقة يحملها بيده ؛ وأما الحافظ فهو الذى يلقى خطابه عن ظهر غيب كما يلقى الطلبة محفوظاتهم فى المدارس ؛ وأما المرتجل فهو الذى يلقى من وحى الخاطر وحاضر البديهة

ولقد دلت التجارب على أن السامعين يتبرمون بالخطيب القارىء ، ويشيع السأم فى نفوسهم ، وبخاصة حين يلمحون أكداس الورق أمامه ، وإذا لم يجد الالقاء جاءت عباراته بمثابة قطع الثلج تتساقط فوق رؤوسهم ، وهم يؤثرون أن يتلوها حين يخلون إلى ضمائرهم ليتذوقوا جمال الأسلوب ونضوج الفكرة فيها . والخطب المكتوبة تدعو للاطالة والاسهاب فتبعث على الملل ، ولذلك جرت التقاليد البرلمانية على تحريمها . ثم إن ما يغتفر للخطيب المرتجل الذى يلقى من حاضر البديهة لا يغتفر للخطيب القارىء الذى أمعن فى التحضير وأطال فى الكتابة . فالأول ، خلال فورة الخطابة وغليانها ، إذا جرح أحداً ، أو فاه بعبارة نابية ، افترض فيه حسن النية ، وسقط عنه ركن العمد . فأما الثانى وقد قال عبارته فى دم بارد ، وضمير جامد ، فانه يتحمل الظروف المشددة المترتبة على العمد وسبق الاصرار

على أنه لا مندوحة عن تلاوة الخطب الرسمية ؛ فخطورة الموقف ، ودقة المسئولية ، تحتمان وزن العبارات ، ولا تسمحان بمغامرات الارتجال الخطابى . وهنا نحضر فى رواية « فون بيلوف » مستشار الأمبراطورية الألمانية قبل الحرب العالمية إذ قال فى مذكراته أنه كان يعد لغليوم الثانى أمبراطور ألمانيا السابق الخطب التى يزمع إلقاءها فى المواقف الرسمية الخطيرة ، مخافة أن يتورط ، وقت الاندفاع الخطابى ، فى عبارات تمس مسئولية الدولة الألمانية . على أن الأمبراطور كان كلفاً بالخطابة ، وكان يزهم لنفسه قدرة على الارتجال لا تجارى ولا تبارى . وتحدد يوم ليلتقى بقيصر الروسيا على ظهر بارجة حربية ، وأعد له « فون بيلوف » الخطاب الذى سيلقيه ، فما أن نهض غليوم للخطابة حتى ضرب صفحاً عن الخطبة الرسمية ، وفاه بعبارات أقامت الدوائر السياسية البريطانية وأقعدتها ؛ ففطنت الدبلوماسية الألمانية للأمر ، ونشطت لانقاذ الموقف ، وإصلاح ما أفسده زهو الطاووس

والخطيب القادر على الارتجال لا يلبث أن يشعر بثقل قيود التلاوة حتى فى أدق المواطن الرسمية وأخطرها . وسعد زغلول ، وهو المثل الأعلى للخطيب المرتجل ، كان يضيق بالتلاوة صدراً ، فيلقى الأوراق من يده ويعمد إلى الارتجال ، فيحلق فى سماء البلاغة

ولا بد للخطيب الحافظ من ذاكرة جبارة لأنه إذا خانته الذاكرة بات فى أدق المواقف وأحرجها ؛ فقد يروى أن نائباً من نواب الأمبراطورية الفرنسية ألقى خطاباً شهد الجميع بأنه رائع

فما لبث محرر صحيفة « الفيجارو » أن أماط اللثام عن أن الخطاب منتحل . فأقر النائب بمصدر الخطاب ، وقال إن له ذاكرة قوية فيحفظ عن ظهر قلب أغلب ما يقرأ . وأنه قرأ ذاك الخطاب فوعته ذاكرته . فلما حمى وطيس الجدل فى المجلس ألقاه وهو يؤمن بينه وبين نفسه « أنه له » ! ودارت الأيام دورتها وأصبح عضواً بمجلس الشيوخ ، فقام للخطابة وظل يهدر ويتدفق حتى اصطدم بكلمة فما يدرى ما يعـــدها ؛ ولبث يحاول ثم يحاول فلا يجد ما يقوله كأن ما بذهنه قد تبخر . فأنقذ رئيس المجلس الموقف بأن رفع الجلسة ، فلما أعيدت نهض صاحبنا وعالج الكلام فلما بلغ تلك الكلمة ارتج عليه ، وما كان يغنى عنه أن يبدأ الجملة من أولها إذ كان عند ما يبلغ تلك الكلمة يرتج عليه ثانية ، فبادر الرئيس إلى إنقاذ الموقف برفع الجلسة نهائياً ، وما ارتقى صاحبنا المنبر بعد ذلك أبداً

والخطيب الحافظ إن لم يكن حسن الالقاء ، لطيف الايماءة ، كان ضعيف التأثير فى سامعيه ؛ وشعور الجمهور يهديه إلى اكتشاف الخطب المحفوظة عن ظهر قلب . فالألفاظ البراقة ، والصور الخلابة ، والعبارات المصقولة ، والجمل المسجوعة ، مضافة إلى الاندفاع الخطابى ؛ كل أولئك يمزق القناع عن وجه الخطب المحفوظة ويهدم دعوى الارتجال من أساسها

استغفر الله أن يفهم من قولى أن الخطيب لا ينبغى له أن يلبس فكرته ثوباً جميلاً ، وإنما أريد أن أقول إن الخطيب الجدير بحمل هـذا اللقب لا يجمل به أن يكون أسيراً لألفاظ رصها وعبارات رصفها . فليس العيب فى العناية باعداد الخطاب ، وإنما العيب أن يكون الخطيب عبداً للاستعارات والمجازات والتشبيهات والكنايات ، وعلى الجملة عبداً لكافة المحسنات اللفظية وعبارات البديع والبيان

كان « جان جوريس » الخطيب الاشتراكى العظيم يعترف صراحة بأنه يعد خطبه ولا يرى فى ذلك عيباً على الاطلاق . ففى ٢١ نوفمبر من عام ١٨٩٣ كان يستجوب الوزارة الفرنسية عن سياستها العامة ، فلما فرغ من خطابه نهض المسيو شارل ديبوى رئيس مجلس الوزراء ووزير الداخلية للرد عليه فقال : « أعتقد أنكم بعد أن سمعتم خطاب مسيو جوريس تجدون بعض العناء فى تصديق دعواه بأنى لم أدع له الوقت الكافى لاعداد خطابه » فنهض جوريس وجهر بتلك العبارة : « إنى لأشعر قلبى الاحترام لمنبر الخطابة ولزملائى فأعد ما ألقيه »

وكان « بربو » المحامى الفرنسى المدره يترافع يوما فدفعت الصفاقة خصمه لأن يداعبه مداعبة ثقيلة ، فقال : إن رائحة الزيت تنبعث من ثنايا مرافعته ؛ كناية عن أنه أفنى الليل فى اعدادها على ضوء المصباح . فأجاب « بربو » : « ليس يضيرنى أن يسجل على أنى أعد مرافعاتى بدقة ، وإن اجلالى للقضاء يحول بينى وبين التورط فى العبارات الجوفاء والصيحات الفارغة التى تجد لها موطنا فى ساحة أخرى غير ساحة العدل » ، وكان المحامى الخصم عضوا بمجلس النواب فأفحمته عبارة شيخ المحاماة

ومن الأوهام الشائعة أن الارتجال فى الخطابة يعنى أن الخطيب ينهض ولم يعد خطبته ، بل إن ذهنه خلو من كل مايتعلق بالحديث الذى سيخوض فيه ، ولسنا نتردد فى الجهر بأن مثل هذا الخطيب عاجز إلا عن الثرثرة والكلام الأجوف الفارغ ، وكل بضاعته ألفاظ طنانة وعبارات رنانة لشد ما لاكها حتى حفظها عن ظهر غيب ، فأصبح يتجر بها فى كل موقف خطابى . وصدقونى أن الخطيب لا يستطيع أن يرتجل الكلام عن موضوع إلا إذا درسه دراسة عميقة ، ولا يقوى على الارتجال فى كل المواقف إلا إذا كانت له ثقافة عالية ومعلومات عامة واطلاع واسع فى العلم والفلسفة والأدب والتاريخ ؛ وفى كلمة ، أن يكون عبارة عن « دائرة معارف » . ولا بد له من اعداد فكرته ، أستغفر الله ، بل لا بد له من اعداد ألفاظه وعباراته قبل إلقاء خطابه ، إنما لا ينبغى له أن يكون أسيراً لألفاظ بعينها أو عبداً لعبارات بذاتها وإلا انحدر إلى طبقة الخطباء الحافظين . وليست تهم طريقة اعداد الخطبة وإنما تهم اجادتها ، فمن الخطباء من يفكر وهو يكتب ، ومنهم من يفكر وهو يمشى ، ومنهم من يفكر وهو يتحدث إلى صحبه ، ومنهم من يفكر وهو فى مضجعه ، ومنهم من يفكر فى الفترة بين دعوته للخطابة ووقوفه على المنبر ؛ وإنما يلتقى الخطباء المرتجلون عند أمرين : سعة الاطلاع ، وهبوط وحى الفكرة وسط حرارة الاندفاع الخطابى

وما إخالك بعد هذا الشرح الموجز إلا قد فهمت مغزى عبارة « بريبه » الخطيب الفرنسى العظيم : « إن سر الخطباء المرتجلين هو أنهم لا يرتجلون على الاطلاق »

عبد المجيد نافع
المحامى